دكتور يوسف القرضاوى

العبادة فى الإسلام

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الرابعة والعشرون

١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت: ٤٨٢٧٨٥١١

من الدستور الإلهى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ *

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ *

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ *

« صدق الله العظيم »

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا. وسيئات أعمالنا. ونصلى ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

وبعد ..

فهذه هى الطبعة الثالثة من كتابى «العبادة فى الإسلام» بعد أن هذّبته وعدّلته ووسعته. حتى بدا فى صورة أخرى غير الصورة التى ظهر بها منذ أحد عشر عاماً.

والكتاب ليس بحثاً فى «الأحكام الفقهية» للعبادة، فلهذا موضع آخر، هو كتاب «تيسير الفقه» الذى أسأل الله أن يعين على إخراجه وإتمامه. وإنما هو بحث فى حقيقة العبادة ومنزلتها وأسرارها، وإن شئت فقل: هو بحث فى «فلسفة العبادة» فى الإسلام.

ولو شئنا كلمة إسلامية أصيلة نعبّر بها عن هذا المعنى لكانت «فقه العبادة» لا بالمدلول الاصطلاحى الذى شاع وأصبح عنواناً على معرفة الأركان والشروط والأحكام الظاهرة والجزئية، بل بالمدلول الذى جاء به القرآن والسنة، فى مثل قوله تعالى: «قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» (١) «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا» (٢). «لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (٣). وقوله صلى الله عليه وسلم «مَن يُرد الله به خيراً يُفقهه فى الدين».

(١) الأنعام: ٩٨

(٢) الأعراف: ١٧٩

(٣) التوبة: ١٢٢

ولكنى لم أستعمل هذه الكلمة خشية أن تفهم بالمدلول الاصطلاحى، وهو ما لم أقصده. ولم أحب استعمال كلمة «فلسفة» مضافة إلى العبادة. فآثرت جعل عنوانه «العبادة فى الإسلام» وكفى.

والعبادة ليست أمراً على هامش الحياة، إنها المبدأ الأول الذى أنزل الله كتبه، وبعث رسله لدعوة الناس إليه. وتذكيرهم به إذا نسوه أو ضلوا عنه. ولهذا خاطب خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ» (١).

وكانت الصيحة الأولى فى كل رسالة «أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ» (٢). «ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ» (٣).

ولما ختم الله كتبه بالقرآن، وختم رسالاته بالإسلام، وختم النبيين بمحمد عليه السلام، أكّد هذه الحقيقة. وأعلن فى كتاب الخلود: أن الغاية من خلق المكلفين أن يعرفوا الله ربهم ويعبدوه. فهذا سر خَلْق هذا الجنس الناطق المفكّر المريد فى هذا العالم «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ» (٤).

بيد أن الناس — حتى المسلمين أنفسهم — ظلموا «العبادة» وحرّفوها عن وجهها، وعن حقيقتها. وعن مكانها. فهماً وأسلوباً. ونظراً وتطبيقاً.

فوجدنا من الناس من لم يعتبروا عبادة الله غاية تطلب لذاتها. إنما هى مجرد وسيلة لتهذيب النفس، وتربية الضمير. وهى ليست — عندهم — الوسيلة الوحيدة، ولا الوسيلة المثلى، ففى الاستطاعة الاستغناء عنها بغيرها من الوسائل «المدنية» التى يتخذها بعض الشعوب أو الدول — حتى الملحدة منها — لتكوين المواطن الصالح.

---

(١) الأنبياء: ٢٥
(٢) النحل: ٣٦
(٣) الأعراف: ٩
(٤) الذاريات: ٥٦، ٥٧.

ووجدنا من الناس من آمنوا بقيمة العبادة ومنزلتها، ولكنهم وجهوها لغير مستحقها، لغير الرب الأعلى، «ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ» (١) فاتخذوا مع الله – أو من دونه – آلهة أخرى، أو اتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. حتى رأينا في المتأخرين من المسلمين أيضاً لوثة من هذا الضلال، فمنهم من يعظم غير الله. أو يقدّس غير الله، أو ينذر لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو يطيع – طاعة مطلقة – غير الله!

ووجدنا من الناس من آمنوا بمنزلة العبادة، ووجهوها إلى مستحقها – سبحانه – ولكنهم لم يعبدوا الله بما أمر به، ولم يتقيدوا بما شرع لهم من طرائق العبادة وصورها. فشرّعوا منها ما لم يأذن به الله، وسنّوا ما لم يسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فشددوا على أنفسهم، وشردوا عن سواء الصراط، وأحاطوا العبادات بالبدع والضلالات، التي ورثوها عمّن ضلّ قبلهم من أتباع الديانات، غافلين عن الاصلاح العظيم الذى جاء به دينهم في مجال العبادة، حيث قوّم عوجها، وأبطل زائفها، ووضع لها الأصول والمبادىء التي تحميها من الغلو والانحراف.

ووجدنا آخرين قد فهموا معنى العبادة – التي جعلها الله غاية الخلق – فهماً جزئياً قاصراً. فهي لا تعدو أداء الشعائر المعروفة من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء.

وبهذا الفهم المبتور لا يبالون ما قصروا فيه بعد ذلك من أوامر الإسلام ونواهيه، وأحكامه ووصاياه، التي تستوعب كل مجالات الحياة. مع أن العبادة – كما جاء بها القرآن والسنّة. وكما فهمها خير قرون هذه الأمة – تشمل الدين كله. وتشمل الحياة كلها.

---

(١) الأعلى: ٢، ٣

من هنا رأينا واجبنا أن نصحح المفاهيم المغلوطة. التى سادت بين كثير من المسلمين المتأخرين فى شأن العبادة. وأن نطارد الأفكار الضالة التى يزيد بعض الناس أن يدخلوها فى رؤوس المسلمين عن قيمة العبادة ومكانتها فى الإسلام. وأن نبين معنى العبادة وحقيقتها. وشمولها وغايتها وسر التكليف بها، وماجاء به الإسلام من هدى وإصلاح فى مجالها. وبهذا نعرف: من نعبد؟ ــ وهو الله تعالى ــ ولماذا نعبده؟ وبماذا نعبده؟ وكيف نعبده؟

كما تممنا ذلك ببحث عن أسرار العبادات الإسلامية الكبرى التى عرفت بأنها «شعائر الإسلام» والتى خصت فى المصطلح الفقهى باسم «العبادات».

ثم ختمنا الكتاب بفصل عن المنهج الأمثل فى تعليم هذه العبادات والشعائر التى عُدّت من مبانى الإسلام.

ولعلى أن أكون بهذا الكتاب قد جليت ما قصدت إليه. وأمطت اللثام عن وجه هذا الجانب الأساسى الهام من جوانب هذا الإسلام العظيم. الذى أكمله الله لنا، وأتم به علينا نعمته. ورضيه لنا ديناً.

وأسأل الله أن ينفعنى به وقارئه وناشره، وأن يغفر لى ما عسى أن يكون من زلات الفكر والقلم، وأن يجعلنا من أهل الإخلاص فى عبادته. والمتابعة لشريعته، المترقين فى مدارج السالكين، ومنازل السائرين إلى مقامات «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»(١) إنه سميع مجيب.

الدوحة فى غرّة ربيع الثانى سنة ١٣٩١ هـ

٢٦ مايو سنة ١٩٧١ م — **يوسف القرضاوى**

* * *

(١) الفاتحه : ٥

العبادة
مهمة الإنسان الأولى في الوجود

- مهمة الإنسان في هذا الوجود
- الأسئلة الخالدة.
- من أين ؟
- إلى أين المسير؟
- لماذا خلق الانسان؟
- النداء الأول في كل رسالة:
«اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره»
- الجميع مأمورون بالعبادة

● مهمة الإنسان فى هذا الوجود :

لماذا وجدت؟ وما مهمتى فى هذا الوجود؟ ورسالتى فى هذه الحياة؟ سؤال واجب على الإنسان ـ كل إنسان ـ أن يسأله لنفسه، وأن يفكر مليّاً فى جوابه.

فإن كل جهل ـ مهما عظمت نتائجه ـ قد يُغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه فى هذه الأرض!

وأكبر العار على هذا الكائن الذى أوتى العقل والإرادة ـ الإنسان ـ أن يعيش غافلاً، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر فى مصيره، ولا يدرى شيئاً عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول، دون استعداد له، ويجنى ثمرة الغفلة والجهل والانحراف فى عمره الطويل أو القصير. وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

لهذا كان لزاماً على كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد: لماذا خلقت؟ وما غاية خلقى؟

* * *

● الأسئلة الخالدة:

وقبل أن يجيب عن هذا السؤال، أو يجاب عنه، بل قبل أن يسأله، يلزمه أن يسأل نفسه سؤالين آخرين، لكى يتضح له الجواب، وتتبين له الحقيقة كاملة مشرقة، لا يحجبها سحاب ولا ضباب.

السؤال الأول هو: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وبعبارة أخرى: من أوجدنى؟

السؤال الثانى هو: ما مصيرى بعد أن وجدت؟ وإلى أين أذهب بعد الموت؟

ويعبر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟.

هذه هى الأسئلة الثلاثة التى صاحبت الإنسان منذ فكر وتأمل، ولا زالت تصحبه وتلح عليه وتطلب الجواب الشافى لها. فبدون هذا الجواب لا تتحدد كينونة الإنسان، ولا موضعه فى الكون ولا رسالته فى الوجود. وكيف يتحدد شىء من ذلك إذا كان كائناً لا يعرف: ما هو؟ ولا لم هو؟ ولا من أين هو؟ ولا إلى أين هو؟!

إنها الأسئلة الخالدة التى حاولت كل فلسفة فى الشرق أو فى الغرب أن تجيب عنها. بل لا تعد فلسفة إذا أغفلت الجواب عنها.

من أين؟

وإلى أين؟

ولماذا؟

ومن أين جئت أنا الإنسان؟ ومن جاء بى؟ وكذلك من أين جاء هذا العالم الكبير من حولى؟

وإلى أين أسير وأرحل بعد أن أوجدت فى هذا الكون؟ وإلى أين يسير هذا الكون أيضاً؟ وماذا بعد هذه الصفحات التى أطويها من كتابى الذى يسمى «العمر»؟

ولماذا خلقت فى هذا العالم؟ وهل لى فيه من رسالة خاصة، ومهمة متميزة؟ وما هى هذه الرسالة، وتلك المهمة؟

* * *

● **من أين؟**

أما السؤال الأول فهو عقدة العقد عند الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس. إنهم يخنقون صوت الفطرة فى صدورهم. ويتحدُّون منطق العقل فى رؤوسهم، ويصرون ـ فى عمى عجيب ـ على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه وجد وحده! وكل ما فيه من إحكام وترتيب إنما هو صنع المصادفة العمياء!

أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة فيقرُّون بأن لهم ولهذا الكون حولهم ربّاً عظيماً تتجه قلوبهم إليه بالتعظيم والرجاء والخشية والتوكل والاستعانة. هذا شىء يشعرون به فى أعماقهم شعوراً أصيلاً، وهذا هو الدين الذى عبَّر عنه القرآن بقوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١)

وقد يخفت هذا الصوت الفطرى فى النفس أو يكبته صاحبه عمداً فى ساعات الرخاء والدعة، فإذا نزلت بالإنسان أحداث مريرة، واهتز عوده أمام الشدائد القاسية، وخاب أمله فى الناس حوله، هُنالك ينطلق هذا الصوت متجهاً إلى ربه ضارعاً خاشعاً داعياً راجياً منيباً إلى الله.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ عن «الله» فقال: ألم تركب البحر؟. قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟. قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر فى بالك وانقدح فى نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو «الله».

وعلى هذه الحقيقة تنبه آيات كثيرة فى القرآن: «وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ» (٢) «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» (٣) «وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ» (٤).

---

(١) الروم: ٣٠
(٢) الزمر: ٨
(٣) لقمان: ٣٢
(٤) الإسراء: ٦٧

ويقول ديكارت: إنى مع شعورى بنقص فى ذاتى، أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأرانى مضطراً إلى اعتقادى بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع الصفات الكاملة وهى «الله».

ونظراً لأن الشعور نابع من الفطرة الأصلية نجد الإيمان بقوة عليا فوق الطبيعة وفوق الأسباب، أمراً مشتركاً بين بنى الإنسان فى جميع البقاع، وبين شتى الأجناس والأقوام، وفى مختلف مراحل التاريخ.

يقول الفيلسوف الفرنسى برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة».

ويقول أرنست رينان فى تاريخ الأديان: «إنه من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحى التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى، الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة فى الحياة الأرضية». (١)

وإذا كان منطق الفطرة يهدى إلى الله — والفطرة ليست وجداناً خالصاً ولا عقلاً محضاً، وإنما هى مزيج منها — فإن العقل المحض يرى الإيمان بالله ضرورة لا محيص عنها حتى يستطيع أن يفسر بها وجود الكون والحياة والإنسان فإن العقل — بغير تعلم ولا اكتساب — يؤمن بقانون «السببية» إيمانه بكل البدائه والأوليات، فلا يقبل فعلا من غير فاعل، ولا صنعة من غير صانع.

وقانون السببية هو الذى عبَّر عنه الأعرابى بسذاجة وبساطة حين سألوه عن «الله» فقال: البعرة تدل على البعير، وخط السير يدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العلى الكبير؟!

---

(١) انظر: الدين، للدكتور دراز ص ٨٧

يقول العالم الطبيعي المعروف إسحاق نيوتن: «لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هى قاعدة هذا الوجود!» وكلما ازداد اطلاع الإنسان على عجائب الكون، ومعرفته بما فيه من جمال وإحكام ولم يقف عند القشور ازداد إيماناً بوجود الخالق وحكمته وعظمته وكمال صفاته. وفى هذا ينقل لنا سبنسر عن «هرشل» قوله: كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية: فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده!

ويقول سبنسر: «إن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والأيدروجين بنسبة خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء. ليعتقد عظمة الخالق وقدرته، وحكمته وعلمه الواسع، بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذى لا يرى فيها إلا أنها نقطة ماء فحسب! وكذلك العالم الذى يرى قطعة البَرَد وما فيها من جمال الهندسة، ودقة التقسيم. لا شك أن يشعر بجمال الخالق، ودقيق حكمته، وأكبر من ذلك الذى لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد»!.

ويقول فرنسيس بيكون: «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيها ينتهى بالعقول إلى الإيمان. ذلك لأن عقل الإنسان قد يقف عند ما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة، فلا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أمعن النظر، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بداً من التسليم بالله».

تلك هى شهادة رجال رسخوا فى علوم الكون، وغاصوا فى أعماقها. وهى شهادات فى جانب الإيمان. ولكن الشك والإلحاد يأتيان من جانب الذين عرفوا قشوراً من العلم. أو درسوا قليلاً من الفلسفة. كما قال بيكون بحق.

إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فحسب، بل هو ضرورة عقلية كذلك، وبدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن قلقاً حائراً بغير جواب: « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ »؟ (١)

وهم بداهة لم يُخلقوا من غير شىء، وطبعاً لم يخلقوا أنفسهم. ولم يدّع أحد منهم ولا ممن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السموات والأرض! فمن الخالق إذن؟!

وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنسان ـ إذا ترك ونفسه ـ إلا أن يجيب به، كما فعل المشركون أنفسهم: « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » (٢)

* * *

• إلى أين المسير؟

أما السؤال الثانى: إلى أين؟.. فإن الماديين يجيبون عنه جواباً يهبط بالإنسان المكرّم إلى درك الحيوانية الدنيا. إنهم يقولون ببساطة عن مصير الإنسان بعد رحلة الحياة الحافلة: إنه الفناء والعدم المطلق: أن تطويه الأرض فى بطنها كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى، وأن تعيد هذا الجسد ـ الذى هو الإنسان عندهم ـ إلى عناصره الأولى، فيعود تراباً تذروه الرياح!

هذه هى قصة الحياة والإنسان عند هؤلاء: « أرحام تدفع، وأرض تبلع »! ولا خلود ولا جزاء. يستوى فى ذلك من أحسن غاية الإحسان، ومن أساء كل الإساءة. يستوى فى ذلك من عاش عمره للناس على حساب شهواته، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس. يستوى فى ذلك من ضحّى بحياته فى سبيل الحق. ومن اعتدى على حيوات الآخرين فى سبيل الباطل!

---

(١) الطور: ٣٥، ٣٦ (٢) الزخرف: ٩

فعلام إذن تميز الإنسان على غيره من كائنات الأرض ؟ ولماذا سخر له كل ما حوله ؟ ولماذا منح من المواهب والقوى الروحية والعقلية مالم يمنح لغيره ؟ وما سر هذا التطلع إلى الكمال والخلود يغمر جوانب نفسه . إذا كان مصيره التلاشي والعدم بعد أيام الحياة المعدودات ؟ !

أما المؤمنون فهم يعرفون إلى أين يسيرون ؟ . يعرفون أنهم لم يخلقوا لهذه الدنيا . وإنما خلقت هذه الدنيا لهم .

يعرفون أنهم خلقوا لحياة الخلود ودار البقاء وهم فى هذه الحياة إنما يُستصلحون ويُعَدون للدار الأخرى ، ويتزودون منها هنا ما ينفعهم هناك ، ويترقون فى مدارج الكمال الروحى والنفسى حتى يكونوا أهلاً لدخول تلك الدار الطيبة التى لا يدخلها إلا الطيبون ، وهناك يقول لهم خزنتها : « سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ » (١)

وإنه لعسير على العقل أن يؤمن بخالق عليم حكيم أحسن هذا الكون صنعاً وقدر كل شىء فيه تقديراً ، ووضع كل شىء فيه بميزان وحساب ، ثم يؤمن بعد ذلك أن سوق هذه الحياة ستنفض ، وقد نهب فيها الناهب ، وسرق السارق ، وقتل القاتل ، ولا تقتص يد العدل الإلهى من هؤلاء المجرمين ، ولا تنتصر للضعيف المظلوم الذى لم يكن له نصير غير الله ، ولا ملجأ غير السماء ، ولا تكافىء المحسن الذى كافأه الناس بالتنكروالاضطهاد ! ! إن هذا هو العبث الذى يتنزه خالق هذا الكون البديع عنه ، وإنه لَلبَاطل الذى قامت السموات والأرض بضده . وما أروع القرآن وهو يوضح هذه الحقيقة الكبيرة : « أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ » (٢) « أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى » ؟(٣) « أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) الزمر : ٧٣ (٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦

(٣) القيامة : ٣٦

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(١) « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ »(٢)! « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ »(٣)

* * *

● لماذا خلق الإنسان ؟

وأما السؤال الثالث وهو الذى يجب أن يسأله الإنسان ـــ بعد أن يعرف أنه مخلوق لخالق ومربوب لرب ـــ وهو ببساطة : لماذا خلقت فى هذه الحياة ؟ ولماذا ميزت على سائر الكائنات الأخرى ؟ وما مهمتى فوق الأرض ؟

فالجواب عنه عند المؤمنين حاضر: إن كل صانع يعرف سر صنعته : لماذا صنعها ؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره ؟

والله ـــ تعالى ـــ هو صانع الإنسان وخالقه ومدبر أمره ، فلنسأله : يارب لماذا خلقت هذا الإنسان ؟ هل خلقته لمجرد الطعام والشراب ؟ هل خلقته

(١) الجاثية : ٢١ ، ٢٢ (٢) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

(٣) الدخان : ٣٨ ـــ ٤٠

للـهـو واللعب ؟ هل خلقته لمجرد أن يمشى على التراب ، ويأكل مما خرج من التـراب ، ثم يـعـود كما كـان إلى التراب ، وقد ختمت القصة ؟ هل ليعيش تـلـك الـفـتـرة الـقـصيرة المعذبة ما بين صرخة الوضع وأنة النزع ؟ إذن فما سر هذه القوى والملكات التى أودعتها الإنسان من عقل وإرادة وروح ؟

وسـيـرد الله عـلـى تـسـاؤلنا بما بيّن لنا فى كتابه ـ كتاب الخلود ـ أنه خـلـقـه ليكون خليفة فى الأرض ـ وهذا واضح فى آدم وما كان من تمنى الملائكة لمنزلته « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١)

وأول شـىء فـى هـذه الخـلافة أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته ويعبده حق عـبـادتـه قـال تـعـالى : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا » (٢) وفى هذه الآية جعلت معرفة الله هى الغاية من خلق السموات والأرض .

ويقول تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » (٣)

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) الطلاق : ١٢

(٣) الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨

وفى بعض الآثار القدسية يقول سبحانه : « عبادى .. إنى ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ، ولا لأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة ، وإنما خلقتكم لتعبدونى طويلاً ، وتذكرونى كثيراً ، وتسبحونى بكرة وأصيلاً » .

إن المتأمل فى هذا الكون الذى نعيش فيه يرى كل شىء فيه يحيا ويعمل لغيره ، فنحن نرى أن الماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن ؟ هذا هو السؤال .

والجواب الذى تنادى به الفطرة ، وتنطق به مراتب الكائنات فى هذا الكون : أن الإنسان لله .. لمعرفته ، لعبادته .. للقيام بحقه وحده . ولا يجوز أن يكون الإنسان لشىء آخر فى الأرض أو فى الأفلاك ، لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له ، وتعمل فى خدمته كما هو مشاهد ، فكيف يكون هو لها أو يعمل فى خدمتها ؟

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته ، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها ، قلباً للوضع الطبيعى ، وانتكاساً بالإنسان أى انتكاس ! !

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون ، إنما هو لله سبحانه لا لغيره . لعبادته وحده ، لا لعبادة بشر ولا حجر ، ولا بقر ولا شجر ، ولا شمس ولا قمر ، وكل عبادة لغير الله إنما هى من تزيين الشيطان عدو الإنسان .

* * *

- **النداء الأول فى كل رسالة « اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره » :**

هذه العبادة لله وحده هى العهد القديم الذى أخذه الله على بنى الإنسان ، وسجله بقلم القدرة فى فطرهم البشرية ، وغرسه فى طبائعهم الأصيلة ، منذ وضع فى رؤوسهم عقولاً تعى ، وفى صدورهم قلوباً تخفق ، وفى الكون حولهم آيات تهدى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا